حلول ابن رشد لإشكالية المحرك الأَوَّل عند أرسطو

سامي محمود إِبراهيم *

تأريخ التقديم: 2022/9/24 تأريخ القبول: 2022/10/15

المستخلص:

لا يقتصر هذا المبحث على حدود طبيعة المحرك الأَوَّل وحركته للعالم في فلسفة ابن رشد، بل يبحث عن العناصر التي اختلف بها عن أرسطو، وذلك لتأكيد أصالته وعمقه واستقلاله الفلسفي في تناول قضايا الوجود الكبرى، وأَبرزها المحرك الأَوَّل، فابن رشد يركز تركيزًا خاصًا على هذا الجانب، ثُمَّ يحاول بعد ذلك أَن يبيِّن أَهمية وبنيوية الحركة الأولى لزمان الكون من خلال قصدية المحرك الأَوَّل وأهميته في دائرة السببية الكونية، فالله تعالى "المحرك الأَوَّل" – كما يرى ابن رشد– أقام هذا العالم على نظام محكم، وأَودع فيه قوانين بها حركته تنتظم.

وإِذا كان أَرسطو يقدم فكرة المحرك الأَوَّل على أساس محوري واحد، فإِنَّنا سنجد هذا الأساس، قد توسع فيه ابن رشد وأَخرجه من زمام تلك الثبوتية، فحاول أَن يؤكِّد ضرورة فهم الحركة الأُولى بوصفه مبدأ أَساسيًا للوجود الَّتي شكلت بدورها صيرورة الكون الأَزلية، ولاسيَّما أَنَّه قد أضاف جديدًا في هذا المجال، هذه الإضافة كانت محاولة منه لحل الخلاف في فهم معاني ودلالات المحرك الأَوَّل وصيرورة حركته الأولى، ذلك أَنَّ حقيقة الخلق وطريقة معرفتها تستلزم دراسة فعل الحركة بوصفه مبدأ مميَّزًا وأَساسيًا يفيد القوة والتأسيس لآلية فهم أَسباب الوجود ولواحقه، بمعنى أَنَّنا سنرى تفسيرًا لأَغلب جوانب تكون الأجسام والأشياء عن طريق مبدأ الحركة الأولى؛ لذلك شكَّلت صور المحرك الأَوَّل عنده طرح جدير بالبحث، فقد أثارت نقاشًا واسعًا بين الفلاسفة والمفكرين، الأَمر الذي يعكس الأَهميَّة البالغة التي احتلها هذا الموضوع؛ لذلك نهدف في هذا البحث تقديم كيفية فهم الصور التي يرتسم بها المحرك الأَوَّل وفقا لمبدئية التكامل الكوني وتحقيق الغائية التي فسرها ابن رشد واختلف بها عن أَرسطو.

---

* أُستاذ مساعد/قسم الفلسفة/كلية الآداب/جامعة الموصل.

وتكمن أهمية هذا البحث في محاولة تسليط الضوء على أَهمية شرح وتفسير إشكالية البعد الميتافيزيقي لحركة العالم بصورها المتعددة المتلونة بالوان الوجود، الَّتي تعبر عن أَصالة وعمق الفهم الرشديّ في طرح قضايا الفلسفة وحل إشكالات فهم أَرسطو.

الكلمات المفتاحية: المحرك الأَوَّل، الوجود، الفاعل، السرمد، الأَزليّ.

المقدمة:

لا يخفى ان إشكالية المحرك الأَوَّل عند أرسطو وحلول ابن رشد لها هي ذلك التصور الفكري الذي يحتاج إلى معالجات وحلول. كأنَّها سؤال مستمر في المعالجة لا يسكن عند جواب شافي.

وإذا كان ابن رشد قد عالج موضوع الفعل والانفعال، فإِنَّه قد درس أيضًا موضوع المحرك الأول، وانتهى إلى انه سبب جميع الحركات في هذا الوجود، يحرك ما فيها من قوة بواسطة إمكانيات الفعل التي يمتلكها، وهو مصدر النظام والتكامل والغاية. وهذا ما سأعمل على تأكيده في هذا البحث.

فالبحث يهدف إلى بيان حقيقة المحرك الأول، تلك الحقيقة التي تحرك بالية غائية ميتافيزيقية تعرف أحيانا بالية الجذب والشوق. اذ تكمن مشكلة البحث في احد اكبر جوانب ميتافيزيقا أرسطو الَّتي تخص المحرك الأول، ما هو فعله؟ كيف يحرك العالم ويدبره؟ وهل لفكرة قدم العالم علاقة بحركته الأولى؟ إلى غير ذلك من الأسئلة، وهنا تتضح أهمية البحث في الوقوف على تلك الإشكالية التي لم يتطرق اليها احد من الباحثين بشكل منهجي مفصل. لذلك سأبادر إلى تقديم قراءة جادة نقدية تحليلية واعية تفحص آراء ابن رشد في بيان تلك الإشكالية.

كما يهدف البحث إلى إقامة الدليل والبرهنة على استقلال وتماسك الفكر الرشدي. بل ان هذا الانسجام يتسع ليشمل كل تفاصيل الحركة والوجود فيجد الباحث نفسه يصعد تدريجيًا من المحسوس إلى الماورائي والمعقول وهكذا وصولا إلى المحرك الأول.

كما سابين الأفكار والتصورات الجديدة والمبتكرة التي خرج بها ابن رشد وهو يؤسس لفكرة المحرك الأَوَّل يتضح من خلالها النظام العقلاني للوجود وتناسقه وانتظامه ثم ارتباط هذا النظام بالصور العقلية وأنماط التصور النفسية.

وسأعمد إلى إثبات وتحقيق رأي ابن رشد في المادة والصورة والقوة والفعل، ثم إلى الأجسام الحية الَّتي منها الكواكب والأفلاك وصولا إلى المحرك الأَوَّل الذي لا يتحرك.

فالوجود بشروطه السببية الأنطولوجية والمعرفية سيكون موضوعا لبحثنا لحلول ابن رشد المتعلقة بإشكالية المحرك الأَوَّل واستاتيكيته الارسطية، ذلك أَنَّنا سنضطر إلى تقديم جميع حلوله المتعلقة بالية الفعل الأول، وما دار حولها من شروح. ولعل ما تقدم ذكره يبين البواعث الأساسية التي دعتني إلى دراسة هذا الموضوع معتمدا المنهج التحليلي الوصفي المقارن. أما مكونات البحث فانه يشتمل على مقدمة ومبحثين، في المبحث الأَوَّل تناولت طبيعة فعل حركة المحرك الأَوَّل واختلافها عن سائر المحركات. أما المبحث الثاني فقط أوضحت فيه تفسير فعل المحرك الأَوَّل في العالم ووحدة الحركة الأزلية. وهنا نجد ان ابن رشد أقدم على مهمة من أصعب المهام التي يتولى القيام بها فيلسوف، وهي المزاوجة بين المفهوم الأرسطي للحركة ولعلاقة المحرك الأَوَّل بالعالم وبين الجوهر النقي للفكر الإسلامي.

فالبحث يتضمن أفكار ابن رشد ونظرته حول مسألة المحرك الأَوَّل الذي لا يتحرك، وإثبات وجود هذا المحرك من خلال تأكيد ابن رشد على وجود الغائية والنظام الذي يسري في العالم.

ويتناول ابن رشد هذه المسالة بكثير من العناية ويخالف فيها أرسطو وفلاسفة الإسلام، خاصة في المشرق. فعملي في هذا البحث هو تناول قضية المحرك الأَوَّل وبناء الحجج المؤدية إلى إثبات صورة المحرك الأقصى الذي لا يتحرك، متابعًا بذلك الخطوات التمهيدية التي أَخذ بها ابن رشد بغية إيضاح ان هذه الصور قائمة على أساس الحركة وعناصرها المقومة كالوجود بالقوة والوجود بالفعل، كما سأتناول المعاني العديدة لمصطلح المحرك الأَوَّل والخلاف الذي دار حولها.

ان موضوع البحث يتسم بالصعوبة والاتساع، نظرًا؛ لأَنَّه متشعب ويتداخل مع الكثير من الموضوعات الأخرى، كالسببية ومسائل الطبيعة والنفس.

وقد ختمت البحث بعدد من النتائج، أمل ان تكون منسجمة مع مجريات البحث، على الرغم من أَنَّها لا تمثل جميع ما يمكن استخلاصه بحكم حاجة كثير منها إلى عمق اكثر وتوسيع أفضل.

وفي سياق ما قدمته لبحثي لا ابتغي الوقوف عند ما خلفه أسلافنا من أعمال جليلة، بل أحيل ما يصلح منه كمفتاح لعطاء جديد يمثل حلقة وصل، تصل الحاضر بالماضي بعين مفتوحة على المستقبل، فتكون الصلة عندئذ بالتراث الفلسفي صلة حية معطاءة تحقق ديمومة الرسالة وترسخ دورنا بوصفنا أمة حية، أمة قادرة على النهوض رغما عن جميع ما يعتريها من عارض المحنة الحاضرة.

المبحث الأول: ماهية المحرك الأَوَّل وعلاقته بالعالم:

من أَبرز بنود العلم الإلهي الذي تطرق له أرسطو كان البحث عن طبيعة المحرك الأَوَّل الذي يخرج ما هو بالقوة إلى الفعل، وذلك انطلاقا من مجموعة من المفاهيم، التي حاول أرسطو صياغتها لتحديد صورة هذا المحرك.

في البداية يظهر أن مدلول المحرك الأَوَّل يحتوي على عدة معاني، لذلك يحدد ابن رشد هذه المعاني ويخالف التفسيرات التي أَدخلها بعض شراح أرسطو[1]. فهو يميز بين ثلاثة أنواع من المحركات تنتهي بالمحرك الأَوَّل الذي لا يتحرك، الَّذي تقف عنده سائر الحركات الصورية والغائية.

(1) أرسطو أو كما مشهور ارسطوطاليس (ت322 ق.م) هو فيلسوف يوناني، أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، ينظر: مصطفى النشار، أعلام الفلسفة في الشرق والغرب، الدار المصرية اللبنانية، 2018، ص10.

ويؤكد ابن رشد ان الإسكندر وابن سىنا قد وقعا في إشكال، وهو قولهما أن المبدأ "الصوري والغائي والمحرك الأول" ثلاثة بالعدد، والصحيح حسب رايه هو ان الثلاثة واحدة بالموضوع [1].

وعلى ذلك يرى ابن رشد ان أقوال الإسكندر وابن سينا لا تعبر عن الفهم الأَرسطي، كما أن ثامسطىوس لم يتعرض إلى هذا الموضوع [2]. فالصحيح عنده ان أرسطو بدأ بالفحص عن المادة الأولى فوجد أَنَّها متحرك منفعل، بينما المحرك الأقصى هو السبب البعيد في التحريك [3].

لذلك يقرر ابن رشد " ان المحرك الأقصى هو واحد ولا يمكن أن يكون كثير، لأن ذلك يلزم بالضرورة أن يكون اسم الفاعل يقال عليه بالاشتراك مع الفاعل الأقصى الذي في هيولى، وهذا محال، هكذا حاول ابن رشد أن يفصل بين السبب الهيولاني والمحرك الأقصى وبين انهما سببان مختلفان من حيث الماهية والوجود"[4]. وهذا موقف شعري ميتافيزيقي يوقظ غيبوبة اللغة الارسطية. لهذا وجدنا ان ابن رشد قبل بالتقسيم الذي وضعه ابن باجة بشأن المحرك الأول. أما ثامسطيوس ومن سار على نهجه، فقد اعتقدوا بأن المقالة السابعة من السماع الطبيعي التي تتحدث عن المحرك الأول، اعتقدوا أنها زائدة. لذلك اقتصروا على شرح المقالة الثامنة فقط. وفي هذا يقول ابن رشد: " أن المقدار الذي بين ها هنا من أمر المحرك الأَوَّل هو المقدار الذي تبين في أول الثامنة. لهذا ظنوا أن ما تبين هاهنا أمره، أنَّه فضل وتكرار"[5].

---

(1) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١٧. كذلك، ابن رشد: تلخيص ما بعد الطبيعة، ص١٢4.

(2) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج٣، ص١٤٣٣. وقارن :

Averroes: Tahafut AL Tahafut, ven Den Berg , London , 1228 , P. 333 .

(3) ابن رشد، تلخيص ما بعد الطبيعة، ص١٢٣. كذلك ينظر: أرسطو، الطبيعة، ج ٢، ص٧5.

(4) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج٣، ص١٥٢١. كذلك، معن زيادة: الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة, ص١٧9.

(5) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص ٩٩. ينظر أيضا:

Burent. J.: Greek philosophy, London 1968, P. 11.

ولتفصيل هذه المسألة وفهمها لابد لنا من أن نشرح رأي ابن رشد. فهو يرى أن الأَوَّل في الحركات يكون على جهتين: الأولى، البريء من كل حركة جملة وهذا هو المذكور في الثامنة من السماع، وهو الذي اعتقد به المفسرون وظنوا أنه هو المقصود في الحالتين. أما الثانية: فهي المحرك من حيث هو ساكن. وهذا هو موضع الخلاف. فابن رشد يرى ان هناك أجساما تحرك من غير ان تتحرك كالمغنطيس للحديد فانه يظن انه يحرك لا بان يتحرك. فالمغنطيس إذا محرك أول؛ لأَنَّه لا يحتاج في حين تحريكه إلى محرك، وان لحقه تحرك فبوجه آخر(1).

وفق ما تقدم تبين لنا أن ابن رشد لا يشك مطلقا في ما اذا كانت المقالة السابعة جزءًا من السماع الطبيعي. ويصرح بانها غير زائدة في فهم المحرك الأَوَّل والحركة الأولى. فهو يرى: " أَنَّ الغرض في هذا القول أَن نبين أن ما بينه أرسطو في أول المقالة السابعة، من أن كل متحرك له محرك، وما بينه من ذلك أيضا في المقالة الثامنة، مطلوبان لا واحد، كل واحد منهما استدعى بىانًا خاصًا به"(2)، هذا من جانب، من جانب آخر نجد أَنَّ ابن رشد يعترض على اعتقاد ثامسطيوس في آن المحرك الأول، والمذكور في كلا المقالتين، إنما هو واحد(3)؛ لذلك نجده يؤكد أن المقالة السابعة تبحث في المحرك الأَوَّل القريب، في حين أن المقالة الثامنة تعالج

---

(1) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص101.

(2) ابن رشد: مقالات في المنطق والعلم الطبيعي، تحقيق جمال الدين العلوي، الدار البيضاء، المغرب،١٩٨٣، ص٢٢7.

(3) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١١4. ومن الشكوك ان المقالة الثامنة لا تحيل إلى المقالة السابعة. وهذا أمر مستغرب إذا عرفنا ان كل مقالة لاحقة تحيل إلى السابقة. ويزداد الأمر استغراباً كون أرسطو في المقالة الثامنة يحيل إلى ما ورد في المقالة السادسة وليس السابعة. هذا بالإضافة إلى ان بعض المتخصصين المعاصرين في فكر أرسطو اعتبروا هذه المقالة منحولة ودون مستوى بعد نظر أرسطو وعمق تفكيره. ويمكن ان نضيف إلى هذه الشكوك شكاً آخر يتعلق بجدوى المقالة السابعة نظراً لتشابه موضوع المقالتين السابعة والثامنة، وهو إثبات وجود المحرك الأول. وأود ان أشير إلى ان ابن رشد قد حاول رفع هذا الشك بالقول بوجود محركين أوليين احدهما المحرك الأول البعيد أو الأقصى، والثاني المحرك الأول القريب.

المحرك الأَوَّل البعيد أو الأقصى، أي المحرك الأَوَّل بإطلاق [1]، ذلك الذي لا يحده زمان.

فحسب موقف ابن باجة الذي أقره ابن رشد هناك ثلاثة أنواع من المحركات، هي [2]:

1- المحرك الذي يحرك ولا يتحرك، مع انه قد يتحرك بأنحاء أُخرى، كالثلج يبرد الإناء والمغناطيس يجذب الحديد دون ان يتحرك.

2- المحرك الذي يحرك ولا يتحرك إلا بالعرض، كالنفس التي تحرك الجسد.

3- المحرك الذي يحرك ولا يتحرك لا بالذات ولا بالعرض، هو المحرك الأَوَّل بإطلاق، مصدر كل الحركات في هذا العالم.

لكن هل ان جميع الحركات واحدة، وهل هي حادثة، أم أن هناك حركة أزلية؟

يقول أرسطو: "إن الحركة لا تزال باقية في الموجودات وهي حياة الطبيعة، فالطبيعة هي عبارة عن حركة وهذه الحركة قديمة، لأَنَّ زمانها قديم" [3]. أمَّا ابن رشد فيرى أَنَّ الحركة لا توجد إِلَّا في محرك، وهي كمال المتحرك بما هو متحرك[4]. لكن هل هذه الحركة التي تحرك العالم واحدة أم كثيرة ؟ يقول ابن رشد: "بأَنَّه إِذا كانت هناك حركة أولى أزلية فيجب ان تكون حركة في المكان. واذا تقرر هذا فيجب

---

(1) معن زيادة: الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة، ص١٦٣.

(2) عمر فروخ: المنهاج الجديد في الفلسفة العربية ص 263. كان ابن رشد يعتقد ان حركة النجوم والكواكب تسيطر على الحركة على الأرض، ولكن لابد من وجود قوة تسيطر على حركة الأفلاك والكواكب والنجوم، وهذه القوة هي ما يسميه ابن رشد " المحرك الأول " أو " الله تعالى".

(3) أرسطو: الطبيعة، ج ٢، ص٨٠١. وانظر كذلك :

M.G.E Vans: the physical philosophy of Aristotle, (University New Mexico, press (1964) P. 57.

(4) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١٠٦. أيضا، نجيب فحول، الغزالي وابن رشد، ص120 .

أَن تكون هناك حركة أولى متقدمة على جميع الحركات إِمَّا بالزمان وإِمَّا بالطبع. وكذلك إِمَّا أَن تكون في متحرك كائن فاسد أو في متحرك أزلي. فاذا كانت في متحرك كائن فاسد فليس هي الأولى لا بالطبع ولا بالزمان"[1]. فالمتحرك بالحركة الأولى يجب أن يكون أَزليًا[2] لكن هل هذه الحركة متقدمة بالزمان على جميع الحركات؟

يجيب ابن رشد بأَن تقدّمها على جميع الحركات يفهم بأن يكون المتحرك بها لم يزل ساكنا ثم تحرك بعد سكون لكن اذا قلنا هذا فيجب أن تكون هناك حركة أخرى قبل الحركة الأولى متقدمة عليها، وذلك إِذا كان المحرك موجودا منذ الأزل، وكذلك المتحرك، فإِمَّا أَن تكون الحركة لم تزل ولا تزال، وإما ان يكون السكون لم يزل ولا يزال[3]، وعلى ذلك يقرر ابن رشد أَنَّه لا توجد هناك حركة أولى لا بالطبع ولا بالزمان، فالحركة الأولى لم تزل ولا تزال.

هنا نصل إلى الحل الرشدي لهذه المسألة؛ إِذ إِنَّ ابن رشد أدرك أَنَّ أفلاطون ومن تبعه، إنما توهموا فيما بالعرض انه بالذات، فمنعوا أن توجد حركة قبل حركة إِلى ما لا نهاية، وتصور الفارابي وابن سينا[4]، فالفعل عند ابن رشد متقدم على القوة، والمحرك الأَوَّل ليس فيه شيء من القوة؛ إذ هو بالفعل دائمًا، كذلك قول الفارابي عندما ظن ان أرسطو يحاول أن يبين أن قبل كل حركة، حركة أخرى تسبقها.

هذا القول برأي ابن رشد باطل لا صحة فيه ولا يمكن افتراضه ابدأ. فالزمان عند ابن رشد أَزلي، وهو واحد ومتصل، وهو عدد الحركة السماوية، وهذه الحركة

---

(1) بشأن فكرة الزمان، ينظر: إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية القاهرة، 1979، ط1، ص95.

(2) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص ١٠7.

(3) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١٠٩. أيضا ينظر: محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، 1970، ص 756. كذلك: محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي، ص 84 .

(4) حسن حنفي: دراسات إسلامية، ص198.

أزلية وواحدة ومتصلة؛ لأَنَّ محركها أزلي[1]، ثُمَّ يصل ابن رشد إلى أن هناك متحركًا أَوَّل بالطبع محركا للكل اليه ينتهي سائر الحركات التي محركها من خارج. ولتوضيح ذلك يؤكد ابن رشد أَنَّ المحرك الأَوَّل في الإنسان هو النفس، أمَّا في العالم فالمحرك الأَوَّل فهو العقل أو الجرم السماوي، والحركة الكلية لا الحركة الجزئية التي للحجر أو الإنسان، هي حركة أزلية مستمرة، وهي ليست مجموعة حركات جزئية. ففي هذا الجانب قصد أرسطو أن يبين أن الحركة ليس لها بداية، لا بمعنى أن كل حركة حادثة لها حركة قبلها. بل بمعنى أن الحركة الكلية للعالم، ليس لها مبدأ زماني[2].

إِنَّ القصد من كلام أرسطو حسب فهم ابن رشد مخالف لما فهمه عنه يحيى النحوي وبعض الفلاسفة، فهو يقول: "هذا هو الذي ينبغي أن يفسر به كلام أرسطو في أول هذه المقالة الثامنة من السماع الطبيعي، لا ما ظنه قوم من ان قصده إِنَّما أَراد أَن يبيِّن أن الحركة لا تخلو بالجنس، فإِنَّما كان نظره في جملة العالم، والحركة التي لا تخلو بالجنس هي في جزء من العالم وكون كل حركة مما دون الحركات الأول، قبلها حركة، هو أمر موجود بالعرض وتابع للحركات الأَوَّل، فإِنَّه لا يمكن أَن يكون قبل الحركة الحادثة حركة حادثة بالذات، لأنه لو كان كذلك لم توجد حركة حادثة إِلَّا بعد انقضاء حركات لا نهاية لها، وهو أمر مستحيل"[3].

---

(1) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١١٩. كذلك :

Jaeger w.w: the theology of the early Greek philosophers; Oxford.1936. P. 221.

(2) حسام الألوسي: حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، ص 152. إذا كان المحرك الأول في الإنسان هو الفكر أو العقل فان ذلك يعني ان الإنسان الفاضل الذي لديه الاستعداد يتحرك ويسكن وفق إرادته واختياره في حين ان الإنسان غير الفاضل خاضع لانفعالاته وغرائزه. فالإنسان بهذه الحالة يشبه الأجسام الطبيعية التي تعمل عند حضور الانفعال، ويكون الانفعال فيه بمنزلة الثقل والخفة في الأجسام الطبيعية. ينظر: معن زيادة، الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة، ص 128.

(3) ابن رشد: تلخيص السماع الطبيعي، ص١١١. ينظر كذلك:

Gilson: History of Christian philosophy, P. 111.

إلى هذا الحد نجد أَنَّ نظام الوجود عند ابن رشد يفترض مسبقًا انفصال الحركة الأولى الدافعة لدينامية الكون عن حركة السماء، مِمَّا يعني دوران العالم في بعد كوني يتخذ اتجاها مضادًا لحركة المطلق الكوني، من غير ان يمس هذا التعارض نظام العالم أو يكون له تأثير على مختلف المسارات الوجودية التي تنتج وحدة الكل المنتظم، ومن غير ان يتوقف الاتصال الحركي والزماني والانتظام المكاني للكون. فلا حقيقة للصيرورة والتغير بذاتها خارج الممارسة الكونية العامة التي تلحقها بحركتها الكونية العظمى، والخاصة بفعل المحرك الأَوَّل .

هكذا تكون فكرة المحرك الأَوَّل، سواء اعتبرناها من وجهة التصور الميكانيكي، أم من وجهات غائية، أَبرز إِطار يسمح بالتأسيس لمعنى الخلق والوجود في العالم. فمن الأكيد ان الحتمية التي تفرضها أنطولوجيا المحرك الأَوَّل على الوجود وصيرورته، وإن كان لها طابعها الديناميكي، إِلَّا أَنَّها تبقى مع ذلك محكومة بإطـــار حتمي صلب، هو إِطار الغائية. فكل حركة راجعة إلى المحرك الأَوَّل فهو معطي الوجود والنظام والترتيب والوحدة التي تسري في جميع أجزاء هذا العالم. وإذا ما عدنا ماهية المحرك الأَوَّل وعلاقته بالعالم عند ابن رشد فسنجد أَنَنا أمام مدرسة فلسفية تجاوزت الاستيعاب والشرح والنقد للموروث الأرسطي، عندما استطاعت أَن تحدث تحولًا في هذا الموروث الفلسفي القديم وخاصة في مسألة المحرك الأَوَّل والعالــم، بحيث أعطتها دورًا إيجابيًا ووعيًا متطورًا للعالــم، ومكنتهــا مــن إحداث قطيعة فعلية مع عدد من المفاهيم والإشكالات التي ظلت بمثابة معوقات أمام تطور النظر الفلسفي وانفتاحه على آفاق جديدة [1].

فقد ذكر ابن رشد انب المحرك الأَوَّل هو الموجود الواحد الأَوَّل غير المتغير، وحضوره هو الذي يجعل العالم يقوم بعملية النمو الكونية كلها، وهو المصدر الأعلى

---

(1) ينظر: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988، ص134. كذلك، ينظر:

NASR (S.H): an introduction to Islamic cosmological . Doctrines, .London, 1904 P. 22

الذي يجعل سلسة الصور الكامنة في المادة في العالم تخرج إلى التحقق الفعلي، والإله يقف خارج مجمل عمليات العالم التي يؤدي حضوره إلى استثارتها لتقوم الطبيعة، وهو ليس مكوناً من مادة وصورة، إنَّما هو صورة خالصة وفعل خاص، هو موجود غير مادي، بل هو ضرورة لوجود العالم واستمراره [1].

إِنَّ هذا الفهم يستدعي كما من التفاسير لمصطلحات ومفاهيم ابتدعها أرسطو وفسرها ابن رشد، فكلمة فعل تتطلب ان نفرق بين الوجود بالقوة، والوجود بالفعل. فالموجود بالقوة هو الشيء غير المتعين، والقابل للتعين إما باي نحو من أنحاء الصورة والتشكل، أو بصورة معينة بنحو ما، بمعنى أَنَّه في حالة استعداد مستمر للكمال[2]. معنى هذا ان الوجود بالقوة يعني ان الوجود غير حاصل بعد، لكنه لا يعني اللاوجود بمعنى العدم المطلق بل هو إمكان وجود الشيء مستقبلًا.

لكن هذا يعني أَنَّ إِمكانية التحقق لا تعني بالضرورة حصول هذا التحقق، فالعملية الوجودية المصاحبة لهذه الإمكانية هي تغير فقط من حالة إلى أخرى[3].

أَمَّا المحرك الذي لا يتحرك فمتصف بالكمال وخال من القوة وما تنطوي عليه من قابلية التحرك أو الصيرورة، لأنه لو كان ينطوي على أي قدر من القوة لامكن

---

(1) هنا يمكننا أن نعود مع ابن رشد إلى مبدأ أرسطو المتواتر" لكل متحرك محرك" بمعنى ان لكل مفعول فاعلاً. فالمحرك الأول هو فاعل الحركات جميعاً، هو منظمها وموجودها من الأزل إلى الأبد حسب ما يرى ابن رشد. فالطبيعة ما هي إلا عبارة عن حركة، وصاحب العلم الطبيعي ينظر في الموجود المتحرك سواء أكان فاسداً ام لم يكن. ينظر: ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، مقالة اللام، ج3، ص1422.

(2) عبده الحلو: ابن رشد ، ص 34 .

(3) من هنا جاء نقد ابن رشد لابن سينا الذي صرح حسب رأيه بان العلم الطبيعي يتسلم المادة الأولى والمحرك الأول وتركيب الجسم من المادة والصورة من علم ما بعد الطبيعة. ينظر: محمد عاطف العراقي، المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، ص227. كما يمكن ملاحظة هذه الموضوع عند الفارابي، ينظر: التعليقات، ص64.

انقطاع الحركة، وهو محال، فأوجب وجود محرك لا يتحرك، حرك المتحرك الأزلي الذي هو السماء الأولى أو الفلك المحيط.

إلى هذا الحد نجد أَنَّ ابن رشد خالف تصورات كثيرة لأَرسطو، منها القول بأزلية العالم وما ترتب عليها، ورفض فكرة إله أرسطو "المحرك الأَوَّل" الذي لم يصنع العالم، ولا يعلم عنه شيئا، ولا يأبه به، فهو عله غائية للعالم، لأنه معشوق له وليس علة فاعلة له.

هذا التصور لم يقبله ابن رشد، لأَنَّه يرى أَنَّه لا يصدق على الله تعالى" المحرك الأَوَّل في الفلسفة الرشدية الإسلامية"، لأَنَّ من صفاته تعالى أَنَّه سبحانه فعال لما يريد وهو يخلق ما يشاء ويختار[1]، فالله تعالى هو الخالق لهذا العالم وليس هو المحرك له فقط. والأدلة العقلية والشرعية والعلمية شاهدة على أن الكون مخلوق بإرادة وغاية ومعية وعناية وموازين خلق عجيبة.

أَمَّا ميتافيزيقا أرسطو فمتناقضة في تصورها للمحرك الأَوَّل بإطلاق"، فهي تصفه بأنه عاطل عن الفعل، فلا خلق ولا قدرة ولا اختيار ولا عناية، خاضع للضرورة. ثم هي من جهة أخرى تصفه بأنه معشوق، وله الكمال المطلق. فمذهبه هذا هو حفظ للوجود بمعزل عن محركه الأَوَّل .

---

(1) يلاحظ ان ابن رشد يتفق مع ابن باجة في ان جميع الأجسام الطبيعية لا تتحرك بذاتها. لكن غايته تختلف تماماً لان ابن باجة حاول من خلال هذا المبدأ ان يصل إلى ان جميع الحركات ترتد إلى محرك أول لا يتحرك. أما ابن رشد فغايته إثبات استمرارية الخلق، للتفصيلات ينظر: ابن باجة، شروحات السماع الطبيعي، تحقيق معن زيادة، ص205. ويلاحظ ان ابن رشد يتفق مع ابن باجة في تعريف كل من الطبيعة والحركة ، وهذا الاتفاق يعد امرا طبيعيا، ذلك ان الفكر العربي على العموم منذ الكندي إلى أيام ابن رشد كان يعتمد اعتماداً واضحاً على الفلسفة الارسطية، والتي ظلت تتناقل إلى ان وصلت ليد الشارح الكبير ابن رشد، فليس غريبا ان نجد أقوال ابن باجة تتكرر ويكون لها حضور عند ابن رشد فهما في الأساس يعتمدان مصادر ارسطية أما في المسائل التي هي محل جدل وخلاف فهما مختلفان فيها، بل ويخالفان أرسطو في أحيان كثيرة .

هذا فضلًا عن أَنَّ ابن رشد حينما أراد أن يبيِّن تأثير فكرة المحرك الأَوَّل في الوجود، لم يقدمها على أَنَّها علة محركة فقط، كما قدمها أرسطو، بل علة غائية فاعلة في الوجود [1].

واضح إذن ان فكرة " المحرك الأول" التي لم تكن سوى ظاهرة عرضية في مذهب أرسطو تصير عند ابن رشد محورًا للوجود وأساسا لبقائه[2].

وعلى هذا يؤكد ابن رشد على ان العلة الأولى هي مبدأ فعل الوجود[3]، فيتفق مع أرسطو بالمحرك الذي هو سبب حركة العالم بكل ما فيه. إلَّا أَنَّ ابن رشد يبين انه يعني بالمحرك الفاعل الله سبحانه وتعالى [4]، وهذا ما لم يصرح به أرسطو، ذلك ان العلة الأولى عنده ليست محركة كعلة فاعلية بل كعلة غائية [5]. فابن رشد يرى أَنَّ هناك طبيعة تلقائية في المحركات والأفعال تكشف عن مبدأ فاعل لا نستطيع إِلَّا إسناده إِليها.

ومن هذه النقطة أعلاه، يمكن أن نفهم الترابط بين الفاعل والمحرك، بفهم العلاقة بين الوجود والفعل. فكما أَنَّ فعل الفاعل لا يتعلق بالوجود الذي بالفعل، ولا بالعدم من حيث هو عدم. بل بالوجود الناقص الذي لحقه العدم، فإنَّه من الصحيح أيضًا– كما يرى ابن رشد– القول بأَنَّ العالم لم يزل يقترن بوجوده عدم ولا يزال يقترن به

---

(1) هنا إشارة الى الاتحاد الوجودي بين الغاية والفعل الصادر من الفاعل، أي هناك رابطة وجودية بين الكمال الذي هو الغاية بوجودها الخارجي التي تكون معلولة لفعل الفاعل وبين الفعل الصادر من الفاعل .

(2) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص 1724، كذلك ينظر: أرسطو، الطبيعة، ج2، ص 752.

(3) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص 1707.

(4) محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص 217.

(5) ماجد فخري: ابن رشد فيلسوف قرطبة، ص 48 ينظر أيضا: يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص180. ومن الملاحظ ان أرسطو لا ينكر وجود سبب مفارق، بل يذهب إلى ان هذا السبب المفارق ، وهو المحرك الذي لا يتحرك، هو السبب الغائي للموجودات لا الفاعل، أما السبب الأخير عند أرسطو فهو السماء الأولى أو الفلك المحيط، ويدعوه بالمحرك المتحرك: ينظر، ماجد فخري، أرسطوطاليس، ص94.

كحاجة إلى المحرك [1]. وبهذا يتم لابن رشد التفرقة بين المخلوقات والمصنوعات، فالمصنوعات إذا وجدت لا يقترن بها عدم تحتاج من أجله إلى فاعل به يستمر وجودها، أَمَّا المخلوقات فخلاف ذلك، إذ إِنَّ العدم مقترن بها وملازم لها لذلك فحاجتها إلى الفاعل مستمرة دائمًا وأَبدًا[2].

ومع كل ذلك فابن رشد يعترف بأنَّ " العالم مفتقر إلى حضور الفاعل له في حال وجوده من جهة ما هو فعل بالوجهين معا" [3]. ومن هنا فإِنَّ ابن رشد يرفض القول بان العالم المتحرك يحتاج الى الفاعل بحدود الحركة فقط. أَمَّا السبب الذي جعله يتجنب إضفاء صفة التحرك والفعل المباشر على المبدأ الأَوَّل فيرجع إلى المفهوم الذي قدمه عن الوحدة الإلهية، من حيث ان تكثر جهات العلاقة العلية تؤدي إلى تكثر العلة ذاتها، وهو أمر يختلف الحال فيه عند المذهب الارسطي، لاختلاف مفهومه عن الوحدة ذاتها [4] .

هكذا، تكون فرضية الفاعل أو المحرك الأول، أَبرز إطار يسمح بالتأسيس لمعنى العالم المتحرك. فمن الجلي أَنَّ هذا الفاعل بإمكانياته اللامحدودة يكشف لنا عن مدى التداخل السببي، بين العالمين، العالم العلوي والعالم السفلي.

المبحث الثاني: العالم ووحدة الحركة الأَزليَّة:

تولى ابن رشد مهمَّة من أَصعب المهام وهي المزاوجة بين المفهوم الأرسطي للمحرك الأَوَّل وعلاقته بالعالم وبين الصورة النقية للفكر الإسلامي، ومن الأكيد أيضا أن "أرسطية" ابن رشد كانت تقتضي منه التسليم بالعلة التامة الَّتي تقوم بالوصل بين الجوهر المطلق والجواهر الحادثة، ذلك ان صورة الكون – كما يتصورها ابن رشد – إنما تتحصل من هذا التفاعل الحتمي بين سلاسل العلل والمعلولات، فلا يتغير النظام حتى مع وضعنا فاعلا أول للعالم "محرك أول لا يتحرك"،

---

(1) ابن رشد: تهافت التهافت، ص274.

(2) المصدر نفسه، ص 275. كذلك: ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، ص 1632.

(3) ابن رشد: تهافت التهافت، ص 168.

(4) انظر : حسام الألوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي ، ص 137.

وإلا لتسلسل الأمر إلى غير نهاية، فلا بد من أن ينتهي الأمر إلى محرك أوّل أزلي يحرك ولا يتحرك، وذلك المحرك الأَوّل هو الله تعالى. ومن صفات المحرك الأَوّل أنَّه لا يتحرك فهو ثابت ويحرك فقط ومعني هذا أن هذا المحرك يتحرك بذاته لأنَّه لو تحرك بغيره فمعني هذا أَنَّه يوجد شيء آخر يحركه فهو لا يمكن أن يكون محركًا بغيره بل محركا بذاته، كما أَنَّه أَبدي لا ينقسم؛ لأَنَّه إذا انقسم تعدد ولو تعدد لصار له أَجزاء وعندها لا نستطيع أن نعرف الحركة من أي جزء، وهو لا ينقسم؛ لأَنَّه خالٍ من المادة.

فإِذا كان هذا الفاعل لا أول ولا آخر من حيث الرتبة والزمان، فمن المعلوم أن يكون الفعل الساري في نظام العالم وطبائع الموجودات لا أول لوجوده ولا آخر، لأَنَّه لا يمكن له أَن يتعالى عن حركة العالم، ولأَنَّه لا يستقل عن دوره الوظيفي المتمثل في اتصال حركة الوجود الدورية التي تدفع الجرم السماوي إلى توليد مظاهر الصيرورة في عالمنا. وبهذا صح ما يراه ابن رشد من ان الوجود والعلة يدلان على وحدة الحركة الأولى. ولهذا يتحدد النظام السببي الذي يوجه الموجودات في عمومها حسب هرمية منطقية تسير من الخاص إلى العام، ومن المتعدد إلى الواحد، إذ منها ما هو قريب خاص بموجود موجود، ومنها ما هو بعيد عام مشترك بين سائر الموجودات. وأَوّل الأسباب الخاصة هما المادة والصورة القريبتان، أما الأسباب المشتركة، فأولها المادة الأولى وهي السبب الأقصى للتحرك والانفعال، فالمحرك الأَوّل الذي هو بالتالي، السبب الأقصى للتحريك والفعل، فضلًا عن الصورة والغاية. فالعالم عنده واحد غير كثير؛ لأَنَّ حركته واحدة[1]. هذا فضلًا عن أَنَّ حركة السماء تستمد وحدتها من المحرك الأَوّل الذي لا يتحرك، هذا المحرك لا داخل العالم ولا خارجه. واقرب الموجودات إِليه هو الفلك المحيط، وان حركة الفلك المحيط ناتجة عن شوقه إلى المحرك الأَوّل، فالفلك المحيط هو أول متحرك وأول محرك يحرك الأفلاك السماوية. وبما أن المحرك الأَوّل أزلي ودائم الحركة، فان التحريك الصادر عنه أزلي بالضرورة.

(1) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج ٣، ص1684.

وعلى ذلك فالفلك المحيط " المحرك الأَوَّل المتحرك"، تكون حركته دائرية؛ لأَنَّ الحركة الدائرية أتم الحركات، فكل نقطة في الدائرة هي بداية ونهاية في نفس الوقت، ولا يوجد تفاوت في الحركة الدائرية؛ إِذ الدائرة فيها مركز ومحيط، والمحيط تقع جميع نقطه على مسافة واحدة من المركز.

بيد أَنَّ حديث ابن رشد عن السبب الأقصى وعن متحركاته القريبة، يستدعي منا الانتباه إلى خاصياته الحركية الفاعلة، وإلى نظام حركته الدورية، الذي به يتم تنفيذ الفعل الكوني. وهذا ما جعل ابن رشد يؤكد على الدور الذي ينهض به الجرم السماوي في المنظومة الكونية، بوصفه حلقة واصلة بين المحرك الأَوَّل والعالم. إذ لابد من وضع أسباب متوسطة بين السبب الأَوَّل والأسباب الطبيعية، مادام الجوهر غير المتحرك لا يحرك إِلَّا من حيث هو مبدأ عقلي للكل، بواسطة العلل السماوية والطبيعية، وما دام لا يوثر في صيرورة اتحاد المواد بصورها إِلَّا من حيث هو صورة مجردة تدفع ما يجاورها من الصور إلى بلوغ الكمال الخاص بها.

وبهذا استطاع ابن رشد ان يكشف عن الآليات المتعددة التي تتحكم فيما ينجزه المحرك المتحرك من أدوار حركية. فهو يعترف بما يلحق معنى الفاعلية من تعقيد مرده إلى أن الفعل ليس معنى في ذاته، بل يرتبط في تجلياته بمدارج ومستويات متعددة، إِذ يرجع إلى الصورة التي هي مفارقة، أو إلى المجموع من الهيولى والصورة. إِلَّا أَنَّنا نستطيع مع ذلك أن نمسك بأول وأَبرز مظهر لفاعلية المتحرك الأول، وهو توليده للقوة الحركية في العالم بشكل متدرج بحسب القرب والبعد من المحرك الأولى، ذلك ان هذا الفلك لقربه من المبدأ الأول، أمكن فيه أن يحرك كواكب كثيرة. وأَمَّا ما دونه من الأفلاك فلبعدها من الشرف كان الأمر فيها بالعكس، أعني أنَّ الأَفلاك الكثيرة منها تدير كوكبًا واحدًا. كأن الطبيعة – كما يرى أرسطو– جعلت الفلك الأشرف يحرك بحركة واحدة كواكب كثيرة، وما دونه يحرك بحركات كثيرة كوكبًا واحدًا.

ولا يعني هذا التفاضل الحركي للأفلاك سيادة الانفصال الأنطولوجي والسببي في نظام العالم، بل إنه يقتضي اتصال النظام وغياب التكوين الصدفي لحركة العالم.

ولهذا ليس يمكن أَن يكون الشيء محركًا لنفسه، وإِلَّا لزم وجوده قبل نفسه، وهذا محال، حتى الكائن الحي المتحرك من ذاته فإِنَّه منتظم من قوى يحرك أَحدها الآخر[1]، فكل متحرك هو متحرك بفعل محرك اخر غيره [2]، وأنه لابد من الانتهاء إلى محرك أَوَّل غير متحرك. وهذا لا يشمل الحركات المادية الآلية فقط، بل ينطبق على كل تغير أو خروج من القوة إلى الفعل، خاصة المسائل النفسية والتغيرات العقلية، وكذا الاعتبارية، فنصل إلى محرك كلي يحرك كل موجود مباشرة لا بالواسطة فإنَّ العلة الأولى تفعل في كل فاعل؛ لأَنَّها علة كل موجود [3].

فالحركة عند ابن رشد هي كمال ما بالقوة من جهة ما هو بالقوة [4]. أو هي خروج الشيء من القوة إلى الفعل، من مرحلة الإمكان إلى مرحلة التحقق والثبوت. هذا يعني ان حركة الشيء عبارة عن وجوده وتشكله في هيئة معينة، ومن ثُمَّ حركة الكون الأولى عبارة عن وجوده الأَوَّل منذ كينونته الأولى، ولا يجوز التسلسل في العلل والمعلولات إلى مالا نهاية؛ إِذ لابد من فرض محرك أقصى لا تشوبه القوة باي حال من الأحوال [5].

فليس في وضع العالم قديما بالزمان عند الفلاسفة، ما يدل على انه غير مفتقر إلى فاعل. فسلسلة الأَسباب – يرى ابن رشد– تنتهي ضرورة إلى سبب أول لا مسبب له هو مبدأ الحركة والفعل في العالم[6]. وفقا لما تقدم نجد ان تصور ابن رشد

---

(1) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص 1565.

(2) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج1، 233. وللتفصيلات ينظر:

Burent. J: Greek philosophy, London 1968, P. 267.

(3) المحرك الأول عند أرسطو لا يعد محركا كعلة فاعلية، بل كعلة غائية، أما عند ابن رشد فنجده محركا كعلة فاعلية، ومع ذلك فهي غائية. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 146.

(4) ابن رشد: السماع الطبيعي، ص22. أيضا: Aristotle: Physica, P . 206 a , 25

(5) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص1565.

(6) محمد عاطف العراقي: النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، ص 233.

للمحرك الأَوَّل وطبيعة الحركة الأولى غير مشكلة الواجب والممكن إلى دليل على وجود إِله في أعلى سلم الوجود وضع الكون كله في حالة حركة وفعل[1].

وهكذا يصل ابن رشد إلى أَنَّ العالم يخضع لحركة أَزليَّة تستلزم محرك أزلي لا يتحرك هو منشئ نظام العالم البديع. وقد أخذ ابن رشد هذا البرهان من كتاب "ما وراء الطبيعة" لأرسطو لكنه أضاف في تفسيره وعدل خاصة في تفسير فعل غائية الحركة الأولى وعلاقتها بالعالم، تلك الغاية هي المحرك الأَوَّل فاعل جميع الحركات في الكون [2]، فهو مصدر نظامه وغاية جميع الموجودات. ثم ان هذا المحرك فعل محض، ولا يمكن أَن يكون محرِّكًا بالقوة وإِلَّا لكان لابد له من محرك يضفي عليه الوجود.

وهكذا، فالحركة الأولى هي قوام الوجود، ومصدرها حركة الأجرام السماوية [3]. والحركة تتسلسل من محرك إلى محرك، من فلك إلى فلك وصولا إلى الفلك المحيط، الذي هو مصدر حركة جميع الأفلاك، فهو المحرك الأَوَّل المتحرك. أمَّا المحرك الأَوَّل الذي لا يتحرك "المحرك الأَوَّل بإطلاق" فهو الذي يحرك كل ما في العالم عن طريق " الشوق" [4] فكل ما في هذا العالم يتحرك شوقًا إِليه[5]، لهذا لم يقع ابن

---

(1) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص 1591.

(2) يرى ابن رشد ان الفاعل الأول الذي في الغائب فاعل مطلق، أما الذي في الشاهد فهو فاعل مقيد. تهافت التهافت، ج1، ص30 2.

(3) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج 3، ص1591. أيضا، الجابري: محمد عابد: ابن رشد، ص118.

(4) حسام الألوسي: حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، ص 11. كذلك، حسام الألوسي: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص 125. كذلك ينظر:

NASR (S.H): an introduction to Islamic cosmological. Doctriness, London, P. 32

(5) ابن رشد: تفسير ما بعد الطبيعة، ج3، ص 1606. نلاحظ ان هناك خصوصية رشدية تتضح عندما يعالج ابن رشد مسألة المحرك الأول في تفسيره كتاب ما بعد الطبيعة، خاصة مقالة اللام. فعندما وصل ابن رشد إلى هذه المقالة ترك النص الأرسطي جانبا وبدا يشتغل على تفسير

رشد في إشكالية فهم أَفلاطوني من خلط بين المبدع الأَوَّل وبين المحرك الأَوَّل الأرسطي، ومما لاشك فيه ان تخطي ابن رشد لكل الصور الفاعلية الإلهية، بل ولكل صور ميتافيزيقا الخلق الكلامية التي كان فكر ابن سينا قد أعطاها مشروعيتها الفلسفية، سوف يفرض على قارئه التخلي عن الصور المعتادة لدلالة فعل الفاعل.

لقد ألزمت صيغ معينة في ميتافيزيقا أرسطو، ألزمت ابن رشد على الأخذ بغائية الجوهر المطلق، كما أغرته أشكال أخرى لها بالأخذ بتصور دينامي للكون يصف انخراط مختلف المتحركات والعلل السماوية في إنجاز وظائفها الكونية في مساراتها الدورية المنتظمة، الَّتي على أساسها تتعاقب الصيرورة المنتجة للكون والفساد على أشياء وموجودات هذا العالم (1). لكن بموازاة ذلك تفترض آلية الوجود انفصال الحركة الأولى الدافعة لدينامية الكون عن حركة الجرم السماوي، مِمَّا يعني دوران العالم في بعد كوني يتخذ اتجاهًا مضادًا لحركة الجوهر المطلق، من غير ان يمس هذا التعارض نظام العالم أو يكون له تأثير على مختلف المسارات الوجودية التي تنتج وحدة الكل المنتظم، ومن غير ان يتوقف الاتصال الحركي والزماني والانتظام المكاني للكون. فلا حقيقة للحركة بذاتها خارج السياقات الكونية التي تلحقها بحركتها العظمى، التي هي فعل المحرك الأول. هكذا إذًا تكون فرضية المحرك الأول، سواء اعتبرناها من وجهة التصور الميكانيكي، أم من وجهات غائية، أَبرز إطار يسمح بالتأسيس لمعنى العالم. فمن الجلي ان الحتمية التي يفرضها المحرك الأَوَّل على الوجود العام، وإن كان لها طابعها الدينامي والمتعدد الأبعاد، إلا أنها تبقى

الإسكندر لهذه المقالة. فقد اصطدم ابن رشد بأرسطو في هذه المقالة، فوجد في الإسكندر مخلصه الأمثل؟ لان المقالة تثير قضية وجودية إسلامية خطيرة هي مسالة المحرك الأول.

(1) حسام الألوسي: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص13. نلاحظ ان أرسطو يقول بطبيعة قديمة متصلة أزلية، ولكن حركتها اللامتناهية تحتاج إلى محرك بل جملة محركات مفارقة أي غير مادية ولا متصلة بالمادة، ولذلك أي لعدم اتصالها بالمادة على سبيل الدفع أو التدحرج أو الشد، فإنها تحرك المادة والطبيعة أو الكون كما يحرك المعشوق معشوقه، بأن يشتهي العالم الله ويتحرك نحوه على سبيل الحركة الموضعية حول نفسه. ينظر أيضا:

Gilson : History of Christian philosophy , P. 122 .

مع ذلك محكومة بإطـــار حتمي آخر أشمل منهـــا وأعم، هو اطار الغائية. فكل حركة راجعة إلى المحرك الأَوَّل فهو معطي الحركة وبالتالي معطي الوجود ومعطي النظام والترتيب والوحدة التي تسري في جميع أجزاء هذا العالم. فجميع ذلك يرجع إلى الحركة. ولذلك قيل ان جميع الصور هي موجودة بالقوة في المادة الأولى، وهي بالفعل في المحرك الأول.

فالتكون لن ينتهي أبدأ وسيستمر دوما صاعدا في موانئ الطبيعة، مبدعا أشياء جديدة. والقوى الفاعلة هي نزعة نحو التغير سعيا وراء الأفضل؛ إِذ كل تغير أو حركة هو عبارة عن الاستعداد المباشر لتغير آخر أَفضل منه، فكل حركة في الوجود إِنَّما تسعى نحو هدف أو غاية معينة.

إِلى هذا الحد نجد أَنَّ النظام الحركي الدينامي للعالم في تصور ابن رشد يعد مدخلًا لتأسيس وحدة الكون والعالم؛ إِذ هناك اتصال واضح بين المحرك الأَوَّل والمتحركات الطبيعية يشد أرضية البناء الميتافيزيقي للفلسفة الرشدية ويتمثل تحديدًا في ما ينجزه الجرم السماوي من وظائف تحول العلل الوجودية المفارقة إلى دينامية سماوية تدير منظومة الوجود وتدبر نظامه متخذة في الوقت نفسه وضعية السبب والنتيجة، فهي تكون علة لدورها الفاعل في عالم الكون والفساد، وهي معلول ونتيجة، لكون الجرم السماوي يخضع لمنظومة حركية غائية تنشد الوحدة والاتصال بالمبدأ المطلق الأَوَّل، موجد الكل محرك جميع الحركات، من جانب اخر تشير نصوص رشدية عديدة بغلبة المدخل الأفلاطوني على فكر ابن رشد، خاصة وأَنَّ منها ما يعتمد تصورا إلى علة مبدعة فعالة، فيكون منطلق الرشدية بهذا المعنى متجها من الفاعل إلى الفعل لا من المفعولات إلى فاعلها كما عودنا على ذلك التصور الفلسفي الأرسطي المشائي، وما يعزز الموقف أعلاه وجود أَنظمة فرعية داخل النسق الكوني الشامل الذي تصوره ابن رشد، تجسد كلها تقاطع الفاعلية والغائية في مبدأها الأَوَّل، وفعله الحركي الأَوَّل.

الخاتمة:

لم يكن ابن رشد مجرَّد مفكر تابع لأَرسطو، وهذا يظهر في موقفه النقدي الَّذي به استطاع أن يتجاوز جميع فلاسفة الإسلام، ويتمكن من فهم الفكر اليوناني وتوظيفه لخدمة الأُصول والعقيدة الإسلاميَّة.

بعد البحث والدراسة في موضوع "حلول ابن رشد لإِشكالية المحرك الأَوَّل عند أرسطو" توصلت إلى نتائج عديدة، أَبرزها:

1- إنَّ فكرة المحرك الأَوَّل عند ابن رشد تختلف عن فكرة المحرك الأَوَّل عند أرسطو، ذلك أَنَّ فكرة المحرك الأَوَّل صارت اليوم فكرة رشدية خالصة بعيدة عن الفهم الأَرسطي لها. فقد ثبت أن نظام حياتنا ووجودنا كله يعمل بقانون كوني مستمر وموزون يحكم الكون بدءًا من الكوارك إلى المجرة، وهذا القانون ينص على أَنَّ كل شيء في الكون يتجه نحو غاية؛ لذا فمنظومة الوجود كما تصوَّرها ابن رشد تختلف عن التصور الأرسطي. فعند ابن رشد لابد من تدخل أعلى مباشر ضمانًا لاستمرارية الحياة، ولولا هذا التدخل ما كان للحياة أن توجد أو تستمر، بل كان على كل شيء أن يتفكك مباشرة لا أن يتعقد وينمو ويتسع، فالمحرك الأَوَّل وفق التصور الرشدي هو "الموجد" الخالق الحافظ للعالم، الَّذي تستمد الحياة منه باستمرار كينونتها ووجودها ومعناها.

2- المحرك الذي لا يتحرك عند ابن رشد لا بدَّ أَن يكون سرمدًا، لا أَوَّل له ولا آخر، وأَن يكون كاملًا منزها عن النقص والتركيب والتعدد، وأَن يكون مســـتغنيًا بوجوده عن كل ما سواه، وهذا المحرِّك سابق للعالم سبق العلـــة لا ســـبق الزمان، كما تسبق المقدمات نتائجها في العقل، ولكنَّها لا تسبقها في الترتيب الزمني؛ لأَنَّ الزمان حركة العالم فهو لا يسبقه، أو لا يخلق العالم في زمان.

3- فكرة الله تعالى عند ابن رشد تختلف عن ماهية المحرك الأَوَّل عند أرسطو. فعند ابن رشد هي فكرة تتجلى فيها الوحدة العقلية فضلًا عن عقول الأَفلاك، فالله تعالى" المحرك الأَوَّل" هو عقل ومعقول في الوقت نفسه، والوجود الماثل في هذا العالم هو عين الوحدة، سواءً كانت وحدة وجودية أَم وحدة ذهنية فقط.

أَمَّا عند أرسطو فنجد أَنَّ المحرك الأَوَّل" الله تعالى" لا يعقل إِلَّا ذاته، وينفي علمه بالعالم؛ لأَنَّ في ذلك تغير يجب تنزيه الله تعالى عنه، وأَنَّه لا يليق بالله المتصف بالكمال أَن يعلم العالم وهــو أقل منه. فالله تعالى عنــده لا يتصل بالعالم من جهة الخلق والتدبير، ولا من جهة العلم، فقط يعدُّه محركًا للعالم لا غير، وهذا الرأي الذي نادى به أرسطوــ أَنَّ الإله لا يعقل إِلَّا ذاته. يســتلزم أَنَّ الله لا يعلــم العالــم بحجة أَنَّ العالم شيء جزئي، وأَنَّ الأَشياء توجد وتنعدم دون أن يريد الله لها ذلك أو يعلم من أمرها شيئًا، فهــو إِذا ينفــي التدبير الإِلهي للعالم الَّذي أقره وأَثبته ابن رشد.

4-لقد أعاد ابن رشد فكرة تصميم المسألة ذهنيًا بشكل مختلف بعض الشيء عن التصور الأَرسطي لها، وقدم أَدلَّة منهجية تختلف كليًا عن النهج المشائي، أَبرزها أَنَّ إِثبات قدم العالم هو جوهر دليل إِثبات وجود الله تعالى.

5- إِنَّ ابن رشد أقدم على مميَّزة من أَصعب المهام التي يتولى القيام بها فيلسوف، وهي المزاوجة بين المفهوم الأرسطي للحركة ولعلاقة المحرك الأَوَّل بالعالم وبين الجوهر النقي للفلسفة الإسلامي، ذلك أَنَّ كل ما في الوجود يسير وفق نظام ونواميس ثابتة، وأَنَّ الوجود بأَسره عبارة عن حركة وانتقال وتفاعل ما بين القوة والفعل، فالحركة هي أَبرز صفات هذا الوجود، يصورها وينظمها باستمرار المحرك الأَوَّل بإطلاق، فهو بمثابة للعدم مقابل الوجود والكينونة وفق نسقية أَزليَّة مستمر يتحقق من خلالها النصر لصالح الوجود العام، لصالح هذا النظام الكوني العجيب.

6- إِنَّ مبدأ تقدم الفعل على القوة عند ابن رشد معناه أَنَّ الأَشياء لا يمكنها الوجود من ذاتها من غير موجد ومحرك، فإِدخال السبب المحرك ضروري لفهم طبيعة الوجود، ولاسيَّما أَنَّ ديمومة الكون التي يؤمن بها ابن رشد تتطلب وجود هذا السبب المحرك وغرضه في ذلك هو إثبات وجود محرك لا يتحرك ليس فيه قوة أَصلًا، وهو بالفعل دائمًا وأَبدًا.

7- أَمر المحرك الأَوَّل فعل متصل غير قابل للقسمة الحقيقية، ذلك أَنَّ اللاتناهي في كل شيء غير معقول، فضلًا عن أَنَّه غير مقبول، بالنظر إلى الصورة العامة التي تقوم عليها الفلسفة الرشديَّة، وهذا خلاف ما أَقرَّه أَرسطو.

References

- Mustafa al-Nashar (2018) **Flags of Philosophy in the East and West,** the Egyptian Lebanese House,.
- Ibn Rushd: **Interpretation of Post-Nature,** Part 3, p. 1433. Compare:. Averroes: Tahafut AL Tahafut, ven Den Berg, London, 1228, P. 333
- Ibn Rushd, **Summary of Beyond Nature,** p. 123.
- Aristotle, **Nature,** vol. 2.
- Ibn Rushd: **Interpretation of Post-Nature**, Part 3, p. 1521.
- Maan Ziyadah: **Movement from Nature to Beyond Nature**, p. 179.
- Ibn Rushd: Essays on Logic and Natural Science, investigated by Jamal al-Din al-Alawi, Casablanca, Morocco, 1983.
- Maan Ziyadah: **Movement from Nature to Beyond Nature.**
- Omar Faroukh: **The New Approach to Arabic Philosophy**, p. 263.
- Aristotle: Nature, vol. 2, p. 801. See also: M.G.E Vans: the physical philosophy of Aristotle, (University New Mexico, press (1964).
- Ibrahim Madkour (1979) **The Philosophical Lexicon**, The General Authority for Amiri Press Affairs, Cairo, 1st edition.
- Hassan Hanafi: **Islamic Studies,** p. 198.
- Muhammad Abed Al-Jabri, (1904) **Formation of the Arab Mind**, 3rd edition, Center for Arab Unity Studies, Beirut, 1988, p. 134.
- NASR (S.H): **an introduction to Islamic cosmology**. Doctrines, London,.
- Abdo Al-Helou: Ibn Rushd.

- Muhammad Lutfi Gomaa: **History of the Philosophers of Islam in the East and the West.**
- Majid Fakhry: **Ibn Rushd, the Philosopher of Cordoba.**
- Yusuf Karam, **History of Greek Philosophy.**
- Hussam Al-Alusi, **Studies in Islamic Philosophical Thought**.
- Muhammad Atef Al-Iraqi: **The Mental Tendency in the Philosophy of Ibn Rushd.**

The Explanations of Ibn-Rushed of the problem of First Engine to Aristotle

Sami Mahmoud Ibrahim *

Abstract

This topic is not confined to the limits of the nature of the first mover and its movement of the world in the philosophy of Ibn Rushed, but rather searches for the elements with which he differed from Aristotle in order to confirm his originality, depth and philosophical independence in dealing with major issues of existence. Ibn Rushed places special emphasis on this aspect, and then tries to show the importance and structure of the first movement of the time of the universe through the intentionality of the first mover and its importance in the circle of cosmic causation. God Almighty is the "first mover" - as Ibn Rushed sees - he established this world on a tight system, and deposited in it laws by which its movement is organized.

And if Aristotle presents the idea of the first mover on a single pivotal basis, we will find this basis, which Ibn Rushed expanded on and took him out of the reins of that assertion. He tried to emphasize the necessity of understanding the first movement as a basic principle of existence, which in turn formed the eternal process of the universe. Especially that he had added something new in this field. This addition was an attempt by him to resolve the dispute in

* **Asst. Prof/Department of Philosophy/College of Arts/University of Mosul.**

understanding the meanings and connotations of the first mover and the development of its first movement, because the reality of creation and the way of knowing it requires the study of the act of movement as an important and basic principle that benefits the strength and foundation for the mechanism of understanding the causes of existence and its suffixes, meaning that we shall see an explanation of most aspects of the formation of bodies and things by the principle of first motion. Therefore, the images of the first mover constituted a proposition worthy of research, as it provoked a wide discussion among philosophers and thinkers, which reflects the great importance that this topic occupied. Therefore, we aim in this research to present how to understand the images that characterize the first mover according to the principle of cosmic integration and to achieve the finality that Ibn Rushed interpreted and differed from Aristotle.

The importance of this research lies in an attempt to shed light on the importance of explaining and interpreting the problematic of the metaphysical dimension of the movement of the world in its multiple forms, which are colorful in the colors of existence, which express the originality and depth of the rationalistic understanding in raising the issues of philosophy and solving the problems of Aristotle's understanding.

Key words: the first mover, the presence, the agent, the eternity, the eternal.